حديث صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني للقناة التلفزية الفرنسية «فرانس 2»

بثت القناة التلفزية الفرنسية «فرانس 2» يوم 2 رمضان 1414 موافق 3 مارس 1994 برنامجا عن مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء استهلته بحديث أجرته مع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني كـ «ضيف استثنائي» في هذه الحلقة الأولى من سلسلة برامج تبثها هذه القناة بمناسبة شهر رمضان تحت عنوان «قافلة الليل».

وأبرز جلالة الملك الحسن الثاني في هذا الحديث الذي أجراه مع جلالته في المغرب منشط الحلقة السيد فريديريك ميتران.. أن المغرب بقدر ما هو متجذر في أكثر الممارسات قربا من أصول و منابع الدين الإسلامي الحنيف بقدر ما هو متفتح على الدعوة للتسامح مع الديانات الأخرى.

ويتضمن برنامج «قافلة الليل» الذي يخرجه السيد توفيق فارس والذي افتتح بهذا الحديث مع جلالة الملك وبروبورتاج مطول عن مسجد الحسن الثاني باعتباره «أحدث الصروح المقدسة في الإسلام» سلسلة من الحلقات المخصصة على التوالي لجامع الزيتونة في تونس و مسجد مدريد بإسبانيا وجامع تومبوكتو بمالي.

وفيما يلي النص الكامل لحديث صاحب الجلالة للقناة التلفزية الفرنسية:

سؤال:

يسعدنا ويشرفنا أن نستضيف في هذه الليلة الأولى من ليالي رمضان المخصصة لبرنامج «قافلة الليل» شخصية كبيرة ألا وهي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب.

واسمحوا لي يا صاحب الجلالة أن أعرب لكم في البداية عن تشكرات الجمهور الفرنسي بصفة عامة والمسلمين في فرنسا بصفة خاصة على تفضلكم بقبول المشاركة في هذا البرنامج.

إن سؤالي الأول يتعلق بظاهرة لفتت انتباهي كثيرا وهي أن هناك نوعا من الجهل في الغرب برسالة الإسلام وبالطريقة التي يمارس بها.

فهل يمكنكم أن تشرحوا لنا بإيجاز الأسباب الكامنة وراء هذا الجهل؟

جواب جلالة الملك:

أود في البداية أن أقول لكم كم أنا حريص كلما سمحت لي الظروف بذلك على متابعة برامجكم، ذلك أنني أجدها مطبوعة بروح الرغبة في المعرفة ونشرها خاصة وأن هذا البحث عن المعرفة يطبعه التواضع الذي لا يمكن تفسيره إلا بالحرص على احترام الآخرين.

وأود كذلك أن أشكركم على هذه المشاعر، لذلك ان إحدى خصائص الإسلام هي التواضع.

أما فيما يتعلق بالجواب على سؤالكم، فأظن أن انعدام التواصل هو الذي جعل الجهل يلف حقيقة الإسلام والحضارة والثقافة الإسلاميتين.

ففي السابق كان علماؤكم في العصر الوسيط يأتون من أجل المعرفة لتعلم اللغة العربية ودراسة الطب والفلسفة العربيين.

أما الآن فقد انقلبت الآية وصرنا نحن الذين نذهب للتعلم في الغرب.

وأنا على يقين من أنه لو كان هناك انتشار أفضل لصورة الإسلام ولحضارته ورسالته لفتح ذلك آفاقا جديدة للكثير من الأشخاص، ولا أدل على ذلك من هذا العدد الكبير من المستعربين والمختصين في الدراسات الاسلامية المعروفين خاصة في فرنسا. ذلك أن هؤلاء كتبوا أشياء رائعة عن الاسلام ولغته وثقافته بل إن البعض مثل ماسينيون الذي كان معتقلا في سوريا جددوا إيمانهم من خلال التصوف الإسلامي.

وأظن في الوقت الراهن أن هناك ما يكفي من وسائل النشر بحيث يمكن لأي كان أن يثير اهتمام وفضول العالم الغربي بما نسميه الفنون والثقافة والحضارة الإسلامية.

سؤال:

من بين الأفكار المسبقة حول الدين الاسلامي التخوف من عدم تسامح هذه الديانة رغم تأكيد القرآن على أنه «لا إكراه في الدين». فكيف التعامل مع هذا الواقع..؟

جواب جلالة الملك:

إن الأمر يتعلق هنا أيضا بالجهل، ذلك أن القرآن الكريم لا يتضمن هذه الآية

وحدها، بل هناك آيات أخرى في نفس المعنى وخاصة في سورة البقرة حيث يقول عز وجل: (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله..)

ومن بين تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم أنه عندما يجد مسلم نفسه في بلد غير إسلامي ويريد أن يصلي فلا يجد مسجدا فيتعين عليه أن يبحث عن كنيسة أو بيعة لأداء صلاته بدل أدائها في الشارع أو في مكان عمومي.

وأعتقد أن الجهل لا يمكنه أن ينطوي إلا عن عدم التسامح.

وعلى كل حال فإن لفظ الكريم الذي كان مستعملا في القرن السابع عشر كان له في الحقيقة هذا المعنى. فحينما يقال عن رجل بأنه كريم فإن ذلك يعني أنه كان يعطي من فكره ولكنه يتقبل كذلك أفكار وعواطف الآخرين. وأعتقد أنه ليس هناك تناقض بين الأمرين وأن الأمر يتعلق هنا أيضا بالجهل.

سؤال:

ألا يتعين التزام الحذر من مدلول بعض الكلمات التضليلي الذي هو رديف للجهل. فعلى سبيل المثال غالبا ما نفهم في صحافة الغرب أن لفظ «أصوليين» يعني حركات تفسد رسالة الإسلام حسب فهمي. فهل أنا مخطىء؟ وكيف يمكن استعمال لفظ «أصوليين» الذي يتردد كثيرا..؟

جواب جلالة الملك:

من حسن حظ اللغة الفرنسية أن لها كلمتين لوصف هذه الظاهرة: فعندكم كلمتا «أصوليون» و«غلاة».

ونحن في المغرب أصوليون أي يقينا أقرب ما يمكن من أصول الدين الإسلامي الحنيف، ولكننا لسنا بغلاة وفي المقابل فلا توجد في اللغة الانجليزية سوى كلمة «أصوليون».

فالغلو موجود في كل الديانات وهناك حديث لرسول الله يقول:

«إن هذا الدين يسر ولن يشاد أحدكم هذا الدين إلا غلبه»

اذن لماذا البحث عن غلو يمكن اعتباره نوعا من المازوشية بالنسبة للفرد إزاء نفسه؟ وهي مازوشية تتحول إلى سادية وعدم تسامح تجاه الآخرين. إن الأصولية تعني التشبث بالأصول والتشبث بالفلسفة الحقيقية للدين وفلسفتنا الإسلامية هي التسامح والتساكن وفهم الآخرين.

سؤال:

صاحب الجلالة لقد سافرت كثيرا في المدة الأخيرة إلى الشرق الأقصى واسترعى انتباهي أننا نجد في عدد من المجتمعات ـ التي تعبد عدة آلهة أو التي تقدس آلهة من الطبيعة ـ شخصيات ذات سمو أخلاقي وفلسفات ممتازة. فهل الدين توحيدي في كنهه وكيف تكون الحاجة إلى الله والبحث عن الإله في حد ذاتها أمر مهم..؟

جواب جلالة الملك:

إن البحث عن الكمال في معرفة الله ليس أمرا محرما لا في الإسلام ولا في النصرانية ولا في اليهودية. بل على العكس فهو أمر مستحب. إلا أنه لا ينبغي أن يكون إلا من أجل معرفة الله الواحد الأحد. فما يميز الديانات السماوية الثلاث هي أنها أولا تنحدر من حيث التسلسل التاريخي من سيدنا إبراهيم، وأنها كلها تدعو إلى عبادة الله وحده. والله ليس بظالم فهو يسمح بالبحث عنه في الكتب المنزلة وفي الكون وفي كل ما خلق.

وأعتقد أنه ليس هناك أي تناقض بين البحث عن الله في الكتب المنزلة وبين البحث عنه في الكون بل على العكس من ذلك تتجلى عظمة الله في مخلوقاته. والأكيد أن محاولة البحث عن الله من باب الشرك هي بدعة تحرمها الديانات الثلاث.

سؤال:

لقد شاهدت هذا الصباح القس بيير في التلفزة وقد استرعى انتباهي حماسه وتحريضه للجماهير من أجل فعل الخير. ما هو رأيكم في هذا الشخص؟

جواب جلالة الملك:

إني أعرف القس بيير منذ حوالي 35 سنة لما كان برلمانيا. وقد كان متحمسا جدا ولا زال.

وأنا أتتبع كل برامجه ونشاطاته لأنه في نهاية المطاف يدعو إلى اليقظة واستباق الأحداث والبحث المعمق إلى أقصى حد لمعرفة حاجيات الفقراء. إنه يحث على الكفاح المتواصل من أجل تحسين وضعية الإنسان.

وكل هذه المبادئ، هي تقليديا وتاريخيا مبادئ دياناتنا الثلاث. وهو يقوم بذلك بطريقته الخاصة المتميزة بالحماس وحضور البديهة واختيار العبارة المناسبة

التي تكون مدوية عند الضرورة.. وأعترف بأني أغبط القس بيير على الحماس الذي لا زال يتحلى به وهو في هذا السن.

سؤال:

لقد سبق لكم في إطار الحوار الأخوي الذي تحتمونه مع أتباع الديانات الأخرى أن استقبلتم البابا وهو حدث ذو دلالة بالنسبة لنا نحن الغربيين. فما هو تقييمكم لمدلول هذا الحدث..؟

جواب جلالة الملك:

لقد جاء في القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام روح وكلم الله. وبما أن البابا يمثل في شخصه كل أتباع الديانة المسيحية لا يسعني بصفتي سبط الرسول وأمير المؤمنين إلا العودة إلى الأصول من خلال لقاء زعيم روحي آخر.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى في حياتي التي ألتقي فيها أحد البابوات. فقد كان بيوس الثاني عشر هو أول من التقيت به وبعدها التقيت بالبابا مرتين إحداهما في روما باسم لجنة القدس والثانية عندما شرفنا بقدومه لأرض الإسلام للقاء إخوانه في الله.

سؤال:

إن ما كان أكثر إثارة هو حشود الجماهير التي أتت لتحيته؟

جواب جلالة الملك:

أجل، لقد كانت هناك حشود غفيرة. ومرد ذلك كوننا عاشرنا العديد من المسيحيين سواء الكاثوليك أو البروتستانت الذين لا تعنينا الخلافات الداخلية بينهم. فعدد من أساتذتنا وأطبائنا كانوا مسيحيين. وعليه فإن لقاء زعيم المسيحيين والكاثوليك ليس أمرا جديدا بالنسبة لنا. ومما لاشك فيه أن شخصية البابا جذابة للغاية ولم يسبق لأحد البابوات أن احتل الصدارة في الصحف والمجلات مثل البابا يوحنا بولس الثاني. كما أن لقاء شخصيتين بلباسهما الأبيض التقليدي يمثلان ديانتين تدعوان للحب والسلام كان حدثا فريدا من نوعه وهذا ما جعل الشوارع تكتظ بالناس.

سؤال:

إن أداء فريضة الصوم يتطلب التحلي بإيمان قوي، واعتبارا لذلك تعتبر هذه

الفريضة متميزة من بين الفرائض الإسلامية الأخرى.

ما هو رأيكم في الاشخاص الذين يجدون مشقة كبرى في الصوم في بلد مثل فرنسا حيث يسير المجتمع بوتيرة تختلف عن وتيرة الدول الإسلامية في هذا الشهر؟.

ماذا تودون قوله لهؤلاء الذين يقومون بهذا المجهود الكبير..؟.

جواب جلالة الملك:

أقول لهم أولا بأن لهم أجر عظيم ذلك لأن الصيام زهد يصبح أكثر سهولة حين يؤدي وسط الجماعة.

ثانيا من الأكيد أنه كلما توجهنا صوب الشمال إلا وأصبح النهار أطول والليل أقصر ذلك عكس ما يعتقده البعض مع العلم أن أوقات العمل ليست مطابقة لتلك المعمول بها في الدول الإسلامية.

لهذا فإن الذين يؤدون هذه الفريضة في مثل هذه الظروف يستحقون كل تقدير وأنا على يقين من أن الله سيثيبهم على ذلك.

سؤال:

وبصفة عامة يا صاحب الجلالة إن ممارسة شعائر دين معين إما أن تكون مواكبة للتحولات التي تشهدها مختلف العصور تبعا للاكتشافات العلمية ولمجموعة من الأشياء أولا تكون. فهل الدين الإسلامي يساير التطورات الجارية؟

جواب جلالة الملك:

في موروثنا الاسلامي لم يسبق لنا نحن المسلمين أن وضعنا أحدا في محرقة.. ولم يسبق لنا إطلاقا أن أحرقنا أحدا لتخليصه من الأرواح الشريرة أو لأنه قال بأن الأرض تدور. وإذن فنحن منفتحون بطبعنا ولذلك فإننا نتطور. وإلى ذلك فإنه حتى في عهد الرسول عرف الدين الإسلامي عددا من التطورات. لقد أمر الله بقطع يد السارق وهذا عقاب كما في جميع القوانين الجنائية. ففلسفة القانون الجنائي تقوم على إعطاء العبرة لمن يعتبر لدرجة أنه حتى عقوبة الاعدام لم يشرع في إلغائها إلا في غضون العقود الأخيرة. وكان الأمر الى حد الآن كالآتي: من قتل نفسا وجب قتله إما بضرب رقبته أو شنقه. وبالنسبة للإسلام فإنه بعد فترة وجيزة من وفاة الرسول عم الجفاف فأمر الخليفة عمر بعدم قطع يد السارق لأنه كانت هناك

ظروف تخفيف. وبطبيعة الحال إذا قمنا ـ وأنا هنا أتحدث عن بلدي ـ بفعل نفس الشيء فإننا سنضع أعباء اجتماعية ثقيلة على كاهل الدولة لأننا خلقنا معدما من الناحية المادية وعاجزا من الناحية الجسمية. كما سيكون من باب السخرية أن نطلب من شخص ما أن يذهب لتقاضي معاشه لأن يده قد قطعت. إذن لابد من مسايرة تطور البشرية. وإذا كان من غير الجائز المساس بالفرائض فإنه ينبغي التكيف مع العصر إذا كنا نرغب في التسامح الذي يعني الأخذ والعطاء فإذا كان المرء يرغب في الأخذ فإن عليه أن يكون في مستوى هذا الأخذ وإذا كان يرغب في العطاء فعليه أن يتعلم الأسلوب البيداغوجي للعطاء وإذن فإن الأمر يتعلق بتكيف متواصل من طرف المؤمن. لكن من دون المساس بأركان الإسلام المتمثلة في الإيمان بوحدانية الله وبأن محمدا عبده ورسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا.

سؤال:

جلالة الملك لقد زرنا مسجد الحسن الثاني الرائع بالدار البيضاء وأريد ان أطرح عليكم سؤالا: هل هذا المسجد الرائع هو رمز لعهد زاهر أم هل هو عمل نابع من الإيمان أم هل هو تعبير عن الانتماء للأمة الإسلامية؟

جواب جلالة الملك:

هو قبل كل شيء عمل نابع من الإيمان وهو كذلك عربون محبة لمدينة الدار البيضاء التي كانت تبدو لي مدينة بدون إشعاع روحي. وأخيرا إنه عمل وطني ذلك أنني أردت ان أظهر الآن وللاجيال القادمة أن المغرب هو ذلك البلد الذي سيواصل دائما وبعون الله التشبث بما هو تقليدي وثابت مع قبول أكثر التقنيات حداثة وتسخير هذا المزيج في ذلك الطابع الذي ميز المغرب على الدوام وهو كونه صلة وصل ليس فقط بين الشرق والغرب وإنما أيضا بين الأمس واليوم وغدا وهذا ما جعلني أشيد هذا المسجد.

سؤال:

هلا تفضلتم يا صاحب الجلالة قبيل وداعنا بقول كلمة الى كل من يشاهدكم من المغاربة وإلى كل المسلمين والفرنسيين وإلى كل أولئك الذين بقوا أمام جهاز تلفزتهم لتتبع حديثكم هذا.

جواب جلالة الملك:

بادئ ذي بدء أقول لكافة الذين يشاهدونني مهما تكن معتقداتهم «السلام عليكم» وبعد ذلك سأطلب منهم أن يتصوروا بأن عدد المسلمين في العالم يصل إلى مليار ومائتي مليون، وإذا ما وجدنا ضمن هؤلاء المسلمين لنقل 0.001 بالمائة - وهذا على كل حال سيشكل بضعة ملايين - من لا يتماشى سلوكه مع بعض الشعائر الدينية ألا يحكم على المليار والمائتي مليون مسلم من خلال هذه النسبة، وإنني أود إبلاغ المشاهدين رسالة محبة لكون التسامح منبثق من رحم المحبة ولذلك فإننا نتمنى التسامح والأخوة ونطلب من الله نحن المسلمين أن يهدينا حتى لا نخدش قواعد حياة من نعيش بين ظهرانيهم.